حكاية أبى القاسم البغدادى

بقلم الدكتور زكى مبارك

[من كتاب تحت الطبع يظهر قريباً بعنوان : النثر الفنى فى القرن الرابع]

١ — مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدى محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكر قليلا جداً فى المجموعات الأدبية ؛ ولم نستطع الوصول إلى معرفة أخباره فى كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس MEZ هدانا فى المقدمة الألمانية التى صدر بها طبعته لهذه الحكاية إلى أن الأزدى كان يعيش فى صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد فى الربع الأخير من القرن الثالث ، فقد كان فى سنة ٣٠٦هـ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله: « ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة ، وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية ، فى الجانبين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ، مايفوت حدود الوصف ، هذا سوى من كنا لا نظفر بهم ولا نصل إليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا إذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه ... [1] الخ » .

وفى مكان آخر يتحدث عن مجلس أنس قضاه مع ابن الحجاج وأبى محمد اليعقوبى وأبى الحسن بن سكرة [2] ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أولهم إلى سنة ٣٩١ ، وثالثهم إلى سنة ٣٨٥ ؛ فحكاية أبى القاسم البغدادى وضعت بلا ريب فى أواسط القرن الرابع .

٢ — وليست حكاية أبى القاسم التى وضعها أبو المطهر الأزدى إلا فنوناً من القول أراد بها وصف المجون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان ، فهى ليست قصة بالمعنى المعرف ، ولكنها مجلس واحد يطرد فيه القول من فن إلى فن فى دعابة وظرف ؛ و(أبو القاسم البغدادى) بطل القصة رجل جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق ، وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندرى فى مقامات بديع الزمان ، فإنا نراه يدارى أهل المجلس ويناقضهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى إذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعباً متمرداً عارفاً بغرائب الخلاعة والمجون .

١) ص ٨٧ من حكاية (ابى القاسم البغدادى)

٢) ص ٨٨ « « « « «

ولنعط الكلمة للمؤلف ليحدثنا عن منهج كتابه :

« . . . بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله والسلام ، أما الذي أختاره من الأدب فالخطاب البدوي ، والشعر القديم العربي ، ثم الشوارد التي افترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء ، والنوادر التي أخترعتها أقراح المحدثين من أعيان الشعراء ، هذا الذي أحصله من أدب غيري ، وأقتنيه وأتحلى به وأدعيه وأرويه من ملح ماتنفسوا به وتنافسوا فيه ، ويصدق شاهدي عليه أشعار لنفسي دونتها ، ورسائل سيرتها ، ومقامات حضرتها ، ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادي كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة ، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها خاطري لتكون كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم ، وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم ، وكأنها قد نظمتهم في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم ، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب ، وتفاوت المنازل ، ولعلي صرت في ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ في فصل من كلامه : « وإنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً » ، وكذلك تكون حكايته للمغربي والخراساني والأهوازي والسندي والزنجي ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم ، فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنه قد جمع كل طرفة في كلام كل فأفاء في الأرض في لسان واحد ، كما أنك تجده يحاكي الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينيه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأن هذا الحاكي قد جمع ماهو مفترق فيهم ، وحضر جميع طرف حكايات العميان في أعمى واحد ، ولقد كان فلان[1] يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا ينهق ، وقد يسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك كحركته لصوت هذا الحاكي وكأنه قد جمع جميع النغم التي تناسب نهيق الحمار فجعلها نهيق حمار واحد فارتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الحمير ، ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة ، ويحكي بفمه كل صوت ، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل اللحم كما تأكل السباع ، ويأكل الحب كما تأكل الطيور ، لأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان » .

وإذا قدمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى آخره ، أو ليلة كذلك ، وإنما يمكن استيفاؤها واستغراقها في مثل هذه المدة ، فمن نشط

(١) هو في البيان والتبيين (ابو دبوبة الزنجي) ص ٣٩ ج ١

لسماعها ولم يعد تطويل فصولها وفضولها كائنة على قلبه ، ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة يعيّرني بها ، لاسيما مع انتهائه منها إلى الحكاية البدوية الأدبية التى أردفتها بها ، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة فى لحنها ، وحلاوتها فى قصر متنها ، وحرارتها فى حسن مذاقها) ، كانت له من البسط جهده المتعب على ، وخيره الممتع له (١) ثم إن لى قدمة شوط أستعيره وأستفيده من شعر أبى عبد الله بن الحجاج وهو قوله :

يا سيدى دعوة من شعره … يجرى على العادة والعرف
لابد أن يغفل عن لفظة … طريفة يأتى بها سخفى

٣ — وهذه المقدمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة فى بغداد لعهده ، وسياق الحكاية صريح فى أنه قصد إلى وصف جانب خاص هو جانب العبث والمجون . والطريف فى منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته إلى أن اللحن قد يكون أصرح من الفصاحة فى عرض الملح والفكاهات ، وأن السخف قد يكون وسيلة إلى طريف الألفاظ فى بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البغداديين فيما دونه أبو المطهر غير قاموسية ، أعنى أنها لم تدون فى المعاجم ، وأبو المطهر يتعمد إليها قصداً ؛ فهو رجل مثقف العقل يجرى فى درس اللغة على منهاج . ومن ذلك ما أنطق به المحدث :

— يا أبا القاسم ، تعرف شيئاً من السباحة ؟

فيجيب :

— يا أحمق ! يا سوادى لا يحسن أن يركب البقر ، وتركى لا يحسن أن ينزع القوس ! أنا والله أسبح من العنفقير ومن التنين . أعرف من السباحة أنواعا لم يحسنها قط ، سمك ولا بط . أعرف منها الشق والزرع والغمر والاستلقاء والتراوز والشكابى والطاووسى والعقربى والمقرفص والمرزوز والكامل والطويل والمقيد ، كان أستاذى فى جميعها ابن الطوّا والزنابيرى .

وفى هذا الحوار يعلمنا أبو المطهر أسماء العوم ، وهى أسماء لا نجد شرحها كاملاً فى القواميس ، ولا نجد فى أهل زماننا من يعرف مالها من مدلول ، وقد تكون أسماء العوم فى أندية الرياضة المصرية مما يمت إلى لغات أجنبية ؛ ولا يقف أبو المطهر عند هذا بل ينطق المحدث بألفاظ الملاحين فيقول :

— يا أبا القاسم ، أريد أن أعرف شيئاً من ألفاظ الملاحين وأحوالهم ، فيقول :

— تحتاج أن تعرف ألوان المراكب فى السفن والسميريات ، والمراكب العاليات ، والزبازب

(١) فى هذه العبارة ركاكة وغموض .

والـكندوريات ، والبالوع ، والطبطاب ، والجدى ، والجاندوس ، والورحيات ، والقوارب ، والخيطيات ، والشلمى ، والجعفريات . (١)

والحديث بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين ، وهى خطة تذكر بما صنعه المسيو كولان حين عاشر المـلاحين المصريين ليعرف الألفاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فانظر كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون ! ويتصل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة فى بغداد ، فقد سخر من أهل أصبهان إذ يجد السالك محال كريهة الأسماء مثل : « موضع المجذومين » و « درب الصم » و « درب العمى » ، ويقول : « هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الوراقين ، والخطاطين ، والخياطين ، والخراطين ، والزرادين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطحـانين ، ومن لا يحصى عدداً من الحذاق المعجزين ؟ »(٢) .

٤ — ولأبى المطهر صور فنية يقصد إليها رغبة فى الدعابة ، من ذلك قوله فى وصف منافق : « ويقبل — خلال الأحاديث — على من يليه من اليمين فيفاوضه ويتسمع من أحاديثه ويستهش لها ويقول : ياسيدنا ! ذا والله ليس كلام البشر ، إنما هو سحر يوله القلوب والأسماع ، كلام والله كبرد الشراب ، وبرد الشباب ، بل كالنعيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ، ما هو إلا كالبشرى بالولد الـكريم ، إلى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة ، صافى الزجاجة ، حلو المساغ ، يمانى به المريض ، ويجبر به المهيض ، يقـود سامعه إلى السجود ، ويجرى مجرى الماء فى العود ، قد اتسع له بحمد الله مشرع الإطناب ، وانفرج عنه مسلك الإسهاب ، فهو منثر الدر على الدر .

فيقول الذى على يساره :

فى أى شىء أنتم ؟ فيغمز إليه بعينه ويقبل عليه ويقول :

ياسيدنا ! إنا فى محنة صلعاء بلا طاقة شعر ، فى كلام أثقل من الجندل ، وأمر من الحنظل ، هذيان المحموم ، وسوداء المهموم ، لمثله يتسلى الأخرس عن كله ، ويفرح الأصم بصممه ، كلام والله يصدى الخاطر ، إن لم يعش الناظر ، كلام تتعش الأسماع من حزونته ، وتتحير الأوهام من وعورته ، لا مساغ له فى الأسماع ، ولا قبول من ...

ثم يلتفت إلى اليمين فينشده صاحبه الذى يليه شعراً فيقول :

أعيذه بالله . ما أصفى نظره ، وأنقى درره ، وأغزر بحره ، وأحكم نحته ونجره (٣) ... لوجعل خلعة على الزمان لتحلى بها مكاثراً ، وتجلى فيها مفاخراً ، شعر والله يختلط بأجزاء النفس ، الآذان والله تصير أصدافاً لهذا الدر !

ويلتفت عنه ثانياً إلى اليسار فيقول :

ياسيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد المبارد ... يل الاستعارة ، وتلك الإشارة

(١) راجع ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) ص ٢٤ (٣) فى الاصل نحره بالحاء المهملة

الفاترة ! ياسيدنا ، بلا حلاوة ولا طراوة ، ليس إلا إقواء وإيطاء وأخطاء . لو شعر أعزه الله بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على اليمين ثالثاً ويأخذ فى تقريظه ويقول :

سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق ، المجد لسان أوصافه ، والشرف نسب أسلافه ، ماورث المحاسن عن كلالة ، ولا ظفر بها عن ضلالة . شجرة طيبة أصلها فى الماء وفرعها فى السماء ، ثم هو بحمد الله فى الكرم والجود بحر لا يظمأ وارده ، ولا يمتنع بارده ، لو أن البحر قدره ، والسحاب مده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه ، وفى العلم البحر الممد لسبعة أبحر ، كأنما يومه بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب ، وأغصانها علم ، وثمرتها عقل ، هذا بحمد الله مع خلق كنسيم الأنوار ، على صفحات الأشجار ، فى نفحات الأسحار ، خلائق فى ذكاء الخلوق ، وشمائل فى صفاء الشمول ، أذكى من حركات الريح بين الريحان ، جد كملو[1] الجد ، وهزل كحديقة الورد ، سبحة ناسك ، وتفاحة فاتك ، وعشرة يكاد ماؤها يقطر ، وصحوها من الغضارة يمطر . ثم المنظر الذى تبهر وضاءته العيوف ، متبرقع والله ببديع الجمال ، متعوذ من عين الكمال ، متخلل مخائل الأمثال . أحلى والله من الوبل ، على المحل ، الخلق وضىّ ، والخلق رضى ، والفضل مضىء . محاسن أنا والله منها فى روضة وغدير ، بل فى جنة وحرير .

ويلتفت إلى من يليه ويقول على العادة فى النفاق والخبث .

ذا والله سخنة عين عصارة لؤم ، فى فؤاده خبث ، كالكمأة لا أصل لها ثابت ، ولا فرع نابت ، لو قذف والله الليل بلؤمه لطفئت أنوار نجومه ، لا يبض حجره ، ولا يثمر شجره ، حجة لا تروى ، وزند لا يورى ، قالب جهل مستور بثوب ، يعثر فى عنان جهله ، ويتساقط فى ذيول خرقه ، صخرة خلقاء لا تستجيب للمرتقى ، وحية صماء لا تتسمع إلى الرقى ، كأنى إذا ناظرته أسفر منه عوداً ، وأهز طوداً ، ثقيل الطلعة ، بغيض التفصيل والجملة . يحكى ثقل الحديث المعاد ، ويمشى على العيون والأكباد ، هو والله فى العين قذاة ، وبين النعل والإخمص حصاة ، كأن وجهه على الحقيقة هول ، المطلع النحس يطلع من جبهته ، والخل يقطر من وجنته ، وجه يشق على العين ، وكلام لا يسوغ فى الأذن ، ما كنت أدرى والله أيحدث أم يحدث ، مدخل أكله أمذر[2] من مخرج ثقله ، لا يفرق والله بين محساه ومفساه ... الخ »[3].

وأول ما يلاحظ فى هذه الصورة كثرة القسم ، وكان ذلك لعهد المؤلف من طبيعة البغداديين ، والصورة عادية من حيث السياق ، فليس فيها تحليل لطبيعة المنافق غير هذا الوضع

---

(١) فى الأصل « غلو » بالغين المعجمة (٢) أمذر : أخبث ، وبيضة مذرة فسدة (٣) راجع ص ١١٣ — ١١٥

البسيط،وهو التلون والتقلب ، والظهور بوجهين ، وتلك أظهر ما فى شيم المنافقين .

وليس لأبى المطهر يد فى تلوين هذه الصورة فهى جملة من المحامد والمقابح جمعها من ألفاظ معاصريه، وكنا أشرنا فى النص الفرنسى إلى أنه اقتبسها من كتب الثعالبى ، ويظهر لنا الآن أن الثعالبى هو الذى اعتمد على أبى المطهر فى نظم هذه الصور الفنية .

٥ ــ ومن هذا الباب ما كتبه فى وصف الثقيل :

« يا أول ليلة الغريب ، إذا بعد عن الحبيب ، ياطلعة الرقيب ، يايوم الأربعاء فى آخر صفر، يالقاء الكابوس فى وقت السحر ... ياخراجا بلا غلة ، ياسفراً مقروناً بعلة . ياأخلق من طيلسان ابن حرب ، ياأشأم على نفسه من ضرطة وهب . ياأبغض من قدح اللبلاب فى كف المريض ، وأنكر من نظر المفلس فى وجه الغريم البغيض ، ياأنتن من الكنيف فى سحر الصيف ، وأثقل من طلعة البغيض على الضيف. ياوجه المستخرج فى يوم السبت، ياإفطار الصائم على الخبز البحت . ياأبرد من الشمال فى كانون ، وأوسخ من فراش الجرب المبطون . يا أقذر من ذباب على جعس رطب، وأحقر من قملة فى أذن كلب ... ياأمذر من جفنة الدباغين ، وأنتن من ريح القصابين. ياأبلد من حضيض الحمام ، وأنتن من حانوت الحجام، ياأقذر من طين السماكين ، ياأوحش من شخص الظالم فى عين المظلوم ، وأكره من صوت البوم، إذا صك سمع المحموم، ياأبرح من غم الدين ، وأشد من وجع العين ، وأوحش من بكرة يوم البين . يالية المسافر ، فى كانون الآخر ، على آكاف بائس ، وبرد قارس ، ياأذل من ناسج برد ، ودابغ جلد ، وراكب قرد ، وسائس عرد. ياأثقل من طفيلى يعربد على الندماء ، ويقترح أنواع الغناء ، ويتشهى بعد أكل الغذاء والعشاء ،ألوان الصيف فى الشتاء ، محثما للساقى ، قاطعاً على المغنى ، يوائب ويدنى [1] . ياأشد على الأحرار من تطاول الحجاب ، وعبوس البواب ، وجفاء الحجاب ،وسوء المنقلب والإياب . ياأشد من كربة صاحب المتاع الكاسد ، وأضيق من قلب الكاشح الحاسد ، وأكرب من الاستماع إلى المغنى البارد. ياأكره من هجران الصديق ، ومن النظر إلى زوج الأم على الريق ، ومضيق الطريق ، بل من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ، وحسد الأقرباء ، وملازمة الغرماء [2] وخيانة الشركاء، وملاحظة الثقلاء ، وملابسة السفهاء ، ومساءلة البخلاء ، ومعاداة الشعراء ». [3]

وقد أشرنا فى النص الفرنسى إلى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة للخوارزمى ، ونرجح الآن أن الخوارزمى هو الذى حاكى أبا المطهر فى وصف الثقيل ، لأن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣أو ٣٩٣ ، وأبو المطهر كان شاباً ماجناً فى سنة ٣٠٦، فمن المستبعد أن يكون عاش طويلا بعد انتصاف القرن الرابع. وقد عدنا فوازنا بين الرسالتين :رسالة أبى المطهر،ورسالة الخوارزمى،

(١) فى رسائل الخوارزمى (يزنى) (٢) فى الاصل الغرباء (٣) راجع ص ١٢٠

فوجدناهما تتوافقان فى ألفاظ، وتختلفان فى ألفاظ، وفى العبارات المتقاربة تظهر الدقة فى جانب الخوارزمى ، فأبو المطهر يقول :

« يا أنتن من الكنيف ، فى سحر الصيف » ، والخوازى يقول : « يا كنيف السجن فى الصيف » ؛ وهى عبارة أقذر وأشنع .

ورسالة الخوارزمى طويلة جداً ، ولكن هيهات أن يصل إلى ماوصل أبو المطهر من الإفحاش والإقذاع ؛ فإنه نثر أهاجيه فى كتابه نثر الشوك ، وهذه الأهاجى البشعة من مظاهر الحضارة فى بغداد ؛ ولنعيذ القارىء أن يدهش من ذلك ، فإن الحضارات تقتضى فنوناً من المناقب والمثالب لاتستطيعها البداوات . وعيوب أصحاب الحرف والصناعات ، ورذائل المترفين ومساوى الموسرين لا تعرف إلا فى الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أهاجى أبى المطهر عنوانا على قوة الحضارة فى بغداد . وهل يستطيع البدوى أن يفهم كيف تكون القذارة فى جفنة الدباغين ، وريح القصابين ، وطين المساكين ؟ هيهات ! فتلك وأمثالها بلايا لا يعرفها إلا الحضريون ! .

٦ — ومن طريف الصور ما جرى به قلمه فى وصف الجمال ، وهو كأهل عصره يتحدث عن جمال النساء وجمال الغلمان ، ففى الفن الأول يقول :

« وذكاء البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يذكر ، فما ظنك بخرعوبة من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحة ، والفطنة مع الصباحة . . . قد أطر الغناء شاربها ، وزوى الإباء حاجبها ، ورخم الدلال ألفاظها ، وفتر النعيم ألحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها ، وألانت النعمة أطرافها ، ولذ للراشف مقبلها ، واغتص بالبرئ مخلخلها ؛ وأطر ماء النعيم بين رياض وجناتها ، وترقرق جريال الشباب على صفحاتها ، وتورد من صبغ الحياء خدها ، واهتز من نضارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها ، وارتجت من الشحم روادفها ، وتشربت أنوار الحسن سوالفها ، ثم أعيدت ساخطة على محبها ، وقد قطب التيه جبينها ، وشمخت النخوة بعرنينها ، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة ، وتأبى قبول معاذيره المزخرفة ، حتى إذا انتهى عاشقها فى الاستكانة والخضوع ، وبلأ كمامه بسوارب الدموع ، افترت مبتسمة عن شتيت الدر ، ونضحت بلطيف كلامها على ذلك الجوى والحر ، ثم أقبلت ترجستاها تدمعان رحمة لعاشقها المبتلى ، فترى والله حباب الدموع وخمر الخجل ، ونفساً تموت فتحييها بزاد من القبل ، وتجشمت بعد ذلك زيارته فى ملاءة من الظلام ، ووافته وهو سادر فى ساعة الأحلام ، وقد يرى أمامها أرج المسك الفتيق ، وعبق الجو منها بريا الراح العتيق ، انثنت متمايلة وقد بل أنبهر غلائلها ، وفتر الأين مفاصلها ، وأرعد الوجد فرائصها ، وغمز المشى أخماصها ، وجعلت تئن عليه بالمامها

وتدعى فضل غرامها ، وتناسم من أحاديثها بما هو أقر لعينه ، وأشهى إلى نفسه ، من طول بقائها ، وبلوغ نعمائها، تدوى بألحاظها ، وتداوى بألفاظها ، تروى بمقلتها ، وتحيى بقبلتها.. الخ الخ ».(ص ٧٦ ، ٧٧)

وفى الفن الثانى يقول :

« كم تشغلنى ياأبله ، وتسألنى عن الأباطيل ، وتقطع كلامى بما لايفيدك ؟ ما أرى والله على رأس أحدكم غلاماً نظيفاً غنج الحركات ، حلو الشمائل ، خنث الأعطاف ، بابلى الطرف ، ... يمشى بخصر دقيق ، وردف ثقيل ، غنت عليه المناطق ، ودل على حسن صنعة الخالق ، خداه جلنار ، وعيناه نرجس ، وشاربه زمرد ، وشفتاه مرجان أوعقيق ، وثغر درر،وريقه رحيق ، كأنه دينار منقوش ، أو جرعة عسل .. . لو جذب عضو منه انقطر ، أرق من نسيم الهواء ، وألذ من الماء بعد الظمأ ، كأنه طاقة ريحان ، أو غصن بان ، أو قضيب خيزران ، أوطاقة آس ريان ، كأن جبينه هلال ، وكأن حاجبه خط بقلم ، كأن عينيه عينا جؤذر ، وكأن أنفه حد سيف ، وكأن وجنته الخمر ، أو لون الراح ، وحمرة التفاح ، أحسن من نور زهر الربيع الباكر على الغصن الروى ، أحسن من الروض الممطور ، كأن شاربه طراز بنفسج على ورد جنى ... كأن شاربه زئبر الخز الأخضر ، وعذاره طراز المسك الاذفر ، على الورد الأحمر . إذا تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق ، عن الدر الأنيق . . . كأن فمه حلقة خاتم ، وكأن ثغره البرد أو أقحوان تحت غمامة ، كأن فاه الخمر ، نبت فيه الدر، كأن عنقه إبريق فضة ، ... كأنما لبس بدنه قشور الدرة، كأنه فضة قد مسها ذهب، كأن بطنه قبطية ، وساقه بردية ، وقدمه لسان حية ، كأن وجهه الشمس ، وكأنه دارة القمر ، وكأنه المشترى ، وكأنه الزهرة ، وكأنه الدرة، وكأنه الغمامة ، أطهر من الماء الزلال ، وألذ من معانقة الخيال ، وأزهر من النار ، وأزكى من الأرض التى تنبت البنفسج ، . . كالظبى الغرير ، والقمر المنير ، والغصن النضير ، والمهاة على الغدير . . . الخ[1] » .

وهذه الصور أيضاً منقولة عن معاصريه من كتاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذى يجمع بين أواصر الإنشاء المتين ، فهى أوصاف حشرت حشراً ، ولم يتكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأسجاع ، بحيث يصعب التمييز بين ماتقله وما ابتدعه، وإن كنا نجد جودة القصص فى مثل قوله يصف غلام ابن عرس :

« كان إذا حضر ألقى إزاره وقال لأهل المجلس : افترحوا واستفتحوا ، فإنى ولدكم ، بل عبدكم، أخدمكم بغنائى ، وأساعدكم على رخصى وغلائى ، من أراد منى مرة واحدة أردته ألف

(١) ص ٦٥ و ٦٦

مرة ، ومن أحبني رياءً أحببته إخلاصاً ، ومن مات لي مت عليه. لم أبخل عليكم بحسني و ظرفي؟ ولم أتعسر عليكم ؟ وإنما خلقت لكم ، ولم أتطاول عليكم ، وأنا غداً مضطر إليكم ؟ إذا بقل وجهي وتدلى سبالي ، وتولى جمالي ، وتكمش خدي ، وتعوج قدي . حاجتي والله إليكم غداً أشد من حاجتكم إلى اليوم. لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطباع ، وقلة الرعاية والحفاظ ... الخ[1] ».

٧ — وقد وصف الخمر في أماكن متفرقة من حكايته ، أظهرها ماجاء في صفحة ١٠٩ وصفحة ١٣٢ ، وهي كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لعرضها في هذا الفصل ، ونشير إلى أننا استظرفنا وصفه للخمر بأنها « أرق من دين أبي نواس[2] » ! .

٨ — وقد يلقاك أبو المطهر بنظرات فلسفية يعلل بها غلبة المجون على الناس ، فقد وصف أحد المؤلفين في زمانه بأنه كان إذا سمع غناء تمرغ في التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر ، واستعر ، وعض بنانه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لطمة في ساعة . وهنا يسأل السامرون :

— يا أبا القاسم ! كل هذا يجري لسماع غناء ؟

فيقول :

— « هذه صورة إذا استولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا تملك ، وغاية لا تدرك ، لأنه قل مايخلو الانسان من صبوة أو صبابة ، أو حسرة على فائت ، أو فكر في متمنى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال ، فالناس كأنهم على جدبلة واحدة في هذه الحال ».[3]

٩ — وقد عرض لفكاهات البغداديين ونوادرهم في غير موضع ، وهي في الأكثر فكاهات ماجنة لاتحسن روايتها في هذا الفصل ، ولا بأس من إيراد هاتين النادرتين :

استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لعرج كان بها فقالت : إن كنت تريد جملا تحج عليه فما أصلح لك ، وإن كنت تريد جارية للمتعة فالعرج لا يمنعك من ذلك .[4]

وقال آخر لجارية : ليتك أمسيت تحتي ! فقالت : نعم ياسيدي ، مع ثلاث أخر ![5] أي إذا كان على الجنازة .

وفي الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم وقيانهم ، وأوصاف سابقة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم .

ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على تشهي اللهو والمجون .

---

١) ص ٨٥ (٢) جاء في ص ١٣٢ (نشاط الشراب يطوي على ما فيه من الخطأ) ، ونشاط تحريف ، وصوابه (بساط) و « متابعة الابطال ، تترك الشيوخ كالاطفال » و (الابطال) محرفة ، والصواب (الارطال) ، و « يأخذ من تقلهم - ويضحك من عقلهم » و (تقلهم) محرفة ، والصواب (نقلهم).

٣) ص ٧٨ و ٧٩ (٤) ص ٧٥ (٥) ص ٧٦

وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعاً لأكثر المعانى الهزلية ، فلم يترك بابا من أبواب الدعابة إلا طرقه ، ولم يدع معنى من معانى الخلاعة إلا ألم به ، وأحسبه حشر فى كتابه أقذر ماروى من الشعر الماجن الخليع .

ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال ، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج النفس اليه فى ساعات الملال .

١٠ـ وفى الكتاب ألفاظ لا تزال حية على ألسنة عوام المصريين ، كقول شاعر فى وصف ثقيل :

يا كل شىء وحش مهول يارأس خنزير ووجه غول[١]

والشاهد فى (شىء وحش) .

وقول آخر :

ياسفل الناس وأوباشهم من بين صفعان إلى ضارط[٢]

والشاهد فى (أوباش) وهى مقلوبة عن (أوشاب)

وقول أبى القاسم : « ياسفل العالم ! إذا أسكرتمونى فمن يزنى حينئذ بأم هذا الديوث الذى أنا فى داره؟» .[٣]

وقول شاعر :

ويك ستى كلمينى قبل أن أبصر مثله

وعوام المصريين يقولون : « فلان عليه حتة لسان » يعنون أن له لساناً طويلا ؛ أى ثرثاراً . ومثل هذا التعبير ورد فى بيت ماجن تقبح روايته .

١١ـ وجملة القول أن كتاب أبى المطهر الأزدى سخيف ، ولكنه مع سخفه ظريف ؛ والمؤلف خليق بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء :

شيخ سخيف ولكن يأتى بسخف مليح

وهناك قصيدة رائية لأبى دلف الخزرجى من شعراء القرن الرابع اسمها القصيدة الساسانية[٤] ؛ وهى فى الشعر كحكاية أبى القاسم فى النثر ، كلتاهما تصف أخلاق الأوباش وتحكى ألفاظهم ، ومراجعة هذين الأثرين مفيدة لمن يعنيه أن يعرف ماأهملت المعاجم من ألفاظ الجماهير السوقية . وبكل مدينة أحياء ماجنة تتفرد بألفاظ وتعابير تمثل مافيها من شواذ الأخلاق . وفى القاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البلد) لهم كنايات وإشارات لا يفهمها الخواص ، كالذى يقع لأهل Belleville من أحياء باريس .؟

زكى مبارك

---

١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٤ (٣) ص ١٢٦ (٤) تجد هذه القصيدة مشروحة فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٦ـ١٩٣